

فراشة" أحلام بشارات تُضيء هواجسَ جيلٍ بالأسئلة وعيدان الثقاب أنس أبو رحمة

الفتاة التي اسمها الحركي فراشة تسأل أسئلة كثيرة وتخبئها في المحفظة، وبجانب الأسئلة أيضاً تخبئ أحلامها، وفي نهاية الرواية، في حلم صغير تطير الفتاة فراشة فوق المستوطنة القريبة من بلدتها، وتفتح ثوبها بالقرب من قلبها وتنتثر الأسئلة والأحلام، فتنزل كعيدان الثقاب، لماذا عيدان الثقاب؟

"اسألوا الفتاة ذاتها، أو خبئوا سؤالاتكم في محفظة".

حينما سألتها الصغير، سالم، أين تخبئين محفظتك التي تخبئين فيها أسئلتك وأحلامك، أجابته الفتاة بأنها موجودة تحت البلاط، لكن البلاط الذي تكلمت عنه الفتاة كان غير موجود.

"لقد كان القلب هو المحفظة، والأسئلة والأحلام كانت هناك".

الفتاة التي بلا اسم، أو صاحبة الاسم الحركي، كونها من فلسطين: وطن تلتبس فيه الأسماء الحركية بالأسماء الحقيقية، حيث الأول للوطن والثاني للحياة، أو الثاني للوطن والأول للوطن. أو ما الوطن والحياة غير اسمين حركيين تختلف فيهما الصورة ويتشابه القلب.

الفتاة يشتغل والدها في المستعمرة القريبة التي بنيت على أراضي قريته، يعمل في زراعة العنب والنخيل عند "كابي" و"يوفال". وابنته تذهب إلى المدرسة وتحفظ للامتحان، امتحان المعلمة، وامتحان الذاكرة، أو امتحان الوطن الذي يسأل أبناءه دائماً عما يفعلون في غيبوبته المؤقتة أو ما يشبه الحضور الفاحش، تحفظ تواريخ المجازر التي ارتكبتها أصحاب المستعمرة ضد أبناء شعبها. وفي حمى تشابك الأفعال وتضادها تقرر الفتاة أن تسأل والدها كيف يصير ذلك، كيف يعمل عند أعدائه، ويرسل ابنته للمدرسة كي لا تنسى مجازرهم، لكنها تصل إلى تخبئة سؤالها في المحفظة.

هيا وميس، صديقات الفتاة التي بلا اسم، تذكراها دائماً بأن والدها يعمل في المستعمرة عند المحتلين في حين هم يقتلون أبناء شعبنا، والفتاة التي بلا اسم ترفض أن تأكل حبات الحلوى التي جلبها والدها معه من المستعمرة بعد أن أعطتها له زوجة كابي.

"تخبر أباها بأن بطنها يؤلمها".

تتوالى الأسئلة على مدى الرواية، وتتسع المحفظة كلما ازدادت الأسئلة، إنه القلب يتمدد بالحرارة حتى يتسع الوطن "السؤال الأكبر" الذي تخرج في ظله أسئلة كبرى عن الحب والجنس والموت والعرس.

الأسئلة الأولى في الرواية تمحورت حول المستعمرة والعمل فيها، سؤال الهوية وممارستها، بعد ذلك "في المنتصف" تخرج أسئلة من نوع مختلف، أسئلة أقرب إلى كون الراوي فتاة بدأت مراهقتها أو على وشك، أسئلة الجنس في ظل القرية، في ظل الكلاشيهات الكبرى:

"حرام، عيب، عرض".

في حصة العلوم، في درس الجهاز التناسلي، تسأل هيا، صديقة الراوية، معلمتها عن سبب إنتاج ملايين الحيوانات المنوية، في حين أن حيواناً واحداً كافٍ لتلقيح بويضة واحدة. الراوية، وفي طريق عودتها إلى البيت، تطرح في محفظتها سؤالاً يُرهقها:

"كيف يصل الحيوان المنوي إلى البويضة رغم أن كلاهما في جهاز منفصل؟"

يبدو أن الرواية على قدر غير بسيط من الخجل أو الخوف، إنها تسأل، لكنها تُخبئ أسئلتها، وفي مقاربة سريعة للنص النفساني "للفراشة" يبدو أن ما يحمي الفراشة من الضياع وتشابك الأسئلة بداخلها في ظل حراك سؤالاتي عنيف هو كون الأسئلة التي تُخبئها الراوية في محفظتها لا تموت، بل تظل تتنفس وتتحرك إلى أن تخرج في النهاية، وتنزل كعيان ثقاب على المستعمرة.

كل الأسئلة ستنزل، أسئلة الوطن وأسئلة الجنس وأسئلة الحب، لأن الأسئلة كلها هي أخيلة لسؤال واحد أكبر، إنه سؤال الحياة في تعدد أسمائها وتحولاتها الزمنية.

لا تكتفي الراوية بتخبئة أسئلتها في المحفظة، بل وتخبئ سؤال الصغير سالم الذي يسأل الراوية:

"لماذا سينام عمي رشيد في سرير أبي؟"

في الرواية يستشهد أبو سالم ويتزوج أخوه امرأته: "ليستر عرض أخيه ويلم لحمه".

سالم الصغير يسأل الراوية أيضاً: "من الذي سيُجيب عن الأسئلة التي تحت البلاط؟" الأسئلة التي في المحفظة؟ "الله"، تجيب الراوية دون أن تضع السؤال في المحفظة.

في جواب واحد تُحل عشرات الأسئلة التي خُبئت منذ البداية: "الله في السماء يعرف أشياء لا نعرفها".

تقول الراوية وتسكت.

وتُحب الفتاة نزار صاحب الاسم الحركي "أبو عمار"، وتنتظره كي يمر من أمام شباكها كل يوم، و"أبو عمار" يشارك في المسيرات، ويهتف فيها بالميكروفون، وتهتف معه ميس صديقة الراوية. الراوية لا تشارك، إنها تسأل وتحب وتكتب مذكراتها وتكتب لنون، الحرف الأول من نزار.

"أيتها الفراشة اشربي من الأسئلة وتغذي من الأحلام"، تكتب الراوية على دفترها، إنها فتاة تكبر على الأسئلة والأحلام، إن كل ما تريده الفتاة من الدنيا في تحريف لمقولة ميلر هو "رزمة أحلام ورزمة أسئلة".

ميس تُخبر الراوية بأنها تحب أبو عمار، المتظاهر للمتظاهرة كما "الطيبون للطيبات"، أما الفراشة فهي للنار أو للأسئلة أو لرجل لا تحبه، سيطلقها بعد أن تتجرب منه طفلاً.

الأب يُطرد من العمل في المستعمرة لأن شخصاً ما وضع مبيداً مع الماء فماتت أشجار العنب، ويعود لتربية الخراف. يستشهد نزار: "لماذا مات نزار؟"، تتسع المحفظة على سؤال جديد، سؤال الموت والحب.

"هل اسمي على شهادة الميلاد أهم، أم ساق جدي وتضحيات الثورة؟"

جد الراوية الذي أصيب في ساقه في حرب 67 يُلقب بالأعرج، تكثُب الراوية على ورقة الامتحان اسمها ومعه الأعرج، الاسم والأعرج، الاسم والوطن، الاسم الحقيقي والاسم الحركي، الاسم الفتاة والاسم الجد.

وتتوالى الأسئلة: "لماذا نترك عدونا الحقيقي ونركض خلف بعضنا؟" سؤال السياسة الفلسطينية التي أتعبت الصغار قبل الكبار بانقساماتها ولا مفهوم فعلها.

وينبت جناحان للفراشة في نهاية روايتها، وتطير "حلقتنا فوق مدينة الكرتون"/ المستوطنة، وتفتُح الراوية ثوبها بالقرب من القلب فتنزل الأحلام والأسئلة "تشبه عيدان تقاب برؤوس حمراء".

"هل ستحرق عيدان التقاب مدينة الكرتون؟ ضعوا السؤال في محافظكم أو اسألوا الله".

ليست الفراشة وحدها من تسأل في الرواية، إن كل جيل من أجيال الرواية كانت له أسئلته، أغلب الأسئلة تقاطعت في سؤال أكبر وهو الوطن ومفهومه وكيف نعيشه. الجد مثلاً، الجيل الأول، الذي شهد الضياع الفلسطيني يسأل "إلى متى سيطل الأخوة يمسون برقاب بعض"، الأب، الجيل الثاني، جيل ما بعد الضياع، له أسئلته أيضاً في الرواية. الرواية، الجيل الثالث، لها أسئلتها. سالم الصغير، الجيل الرابع، جيل المستقبل الغامض، يسأل أيضاً. تعدد الأسئلة

والسائلين يكشف عن اشتباكات عنيفة في المفاهيم لدى أغلب الأجيال، اشتباكات وصلت إلى نصف حل بعد أن صارت أسئلة.

"اسمي الحركي فراشة" صدرت مؤخراً في رام الله عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، الرواية رواية الأسئلة الفاتنة والمخيلات الفتية، رواية الضجر والوطن والعنب والجنس الصغير الذي لم يتعد طور الأسئلة الصغيرة وبراءة المعرفة، رواية القرية بعيون فتاة في طور نموها على المقدس المجتمعي، رواية الوطن بمفهومه الأيسر، شجرة تمر أو حبيب شهيد، رواية السياسة وعنفاً وطلاسمها اللامفهومة.